عناصر الإيمان فى قلوب الشباب*

من محاضرة للأستاذ الكبير محمد توفيق دياب

بدأ الأستاذ الكبير محاضرته ببيان الصلة بين الشباب والايمان وقال إن العصر الحديث لا يزال يتخذ الاصطلاح القائل بإيمان العجائز دليلا على التعلق بالسنن القديمة والعادات الغابرة وعلى التقى والورع الذى يوحى الى النفس معنى الشيخوخة ويناقض فيها معانى القوة والحيوية .

ثم وصف حيرة الشباب فى هذا العصر وسط غواية المادية ومفاتن الشهوات وتغلب المصالح الشخصية . وعزا عدم توافر أسباب التعلق بالمثل الأعلى ونشدان الكمالات الانسانية الى تلك الحيرة الناشئة عن صراع المادة والشهوات .

وناشد الشباب المستمع من الجنسين — وهم الأبناء الذين يقتضيهم ناموس النشوء والارتقاء أن يكونوا أصلح من الآباء — أن " كونوا أبناء عصركم فى كل جد ولا تكونوا أبناء عصركم فى كل هزل" وأن على الشباب أن يطفر الطفرة التى يزعم الزاعمون أنها محال .

ثم قال إننا استدبرنا ماضيا طويلا من الألم ، فالواجب أن نواجه مستقبلا مديدا من الأمل ، ومن الأمل المقترن بالعمل ، ولكن اى أنواع الأمل واى أنواع العمل ؟

ليس هو الأمل الذى ينتهى عند وظيفة من الوظائف أو ديوان من الدواوين . فهذا أمل خداع لم يكسب منه الشباب شيئا .

وكذلك ليس هو العمل الذى يحقق رغبات النفس وحسب ، بدون التفكير فى نفع الغير والإحسان إلى الآخرين .

ولن يتاح الأمل أو يتحقق العمل بغير الإيمان الراسخ فى النفس . ووازع الإيمان هو شعورك فى كل حين أو فى أغلب الأحيان بأن رباطا وثيقا يربطك بمصدر وجودك ، بتلك القوة العليا التى أرسلتك الى الدنيا ، لتبلو سعيك وجهادك ، وتدفعك إلى أداء الرسالة التى حملتك إياها بما أفاضته عليك من نفحات الإنسانية ومزاياها .

* عنوان المحاضرة التى ألقاها حضرته فى قاعة بيورت بالجامعة الأمريكية فى البرنامج الثقافى الذى أعدته ادارة العناية والارشاد الاجتماعى بالوزارة وقد اقتبس مندوب المجلة ما ورد فى المقال .

وكل عمل يؤيده لإيمان هو شيء باق جدير بالخلود . و إذا كانت الفرائض السماوية لاتخرج فى ظن بعض الناس عن كونها عبادة آلية بغير تعاطف و بغير شعور . فكيف بالأعمال الدنيوية التى تتسلط عليها غريزة حب الذات ودوافع البقاء ؟

إن الغريزة أثرة والإيمان إيثار ، تلك منحة الأرض وهذا منحة السماء . والإنسان " بناء من طابقين أعلاهما الإيمان وأسفلهما الغريزة " فالواجب على الشباب أن يكون دائما فى جانب الإيمان ، وأن يرجح عناصره فى نفسه على طبائع الغريزة فى عماقه . فيعيش لوطنه واغيره قبل أن يعيش لنفسه وليس الفرد شيئا فى ذاته إلا بالمجتمع ، وناموس الترابط والتآخى يحتم أن يكون كل إنسان لكل إنسان ، وكل مواطن لكل مواطن والحياة العالية بذل من ذات النفس فى سبيل المجموع .

ثم أوضح الأستاذ أن الإنصراف عن الغريزة " لانريد به أن تموت الغرائز " فانها شيء من صميم التكوين البشرى لاسبيل إلى فصله ، بل يريدها " أداة تخدم الايمان ولا يخدمها الايمان " .

ولا يجوز أن يكون الجهل بحقيقة تلك الروح السلوية التى هى مستودع الايمان فى النفوس ، سببا فى إنكار حقيقة الايمان . فجهل أرسطو بالأعصاب لم يلغ الأعصاب ، وجهل الطب بسر الدورة الدموية لم يلغ لدورة الدموية . فالجهل بحقيقة الروح لا يمكن أن يساق دليلا على عدم وجود الروح ، أو وجود الايمان .

وقد كان إنكار الحقائق الروحية سر الشقاء الدنيوى والصراع الدائر بين الانسان وأخيه الانسان .

فاجدر بالشباب أن يجتهد فى اكتناه هذه اللطائف الربانية المودعة بكل صدر . وقد آن للانسانية جمعاء أن تبلغ الرشد فى هذا العصر ، فتنبذ غرائزها البدائية المتوحشة وتتطلع إلى معانى الحق والخير والكمال .

ثم أشار الأستاذ المحاضر بعد ذلك الى نبوءة الكاتب الانجليزى الكبير H. G. Wells التى تنبأ فيها باقتراب الساعة وفناء الأرض ، وهو يرى أن الانسان الحاضر أصبح عاجزا عن ان يتكيف بالبيئة والمحيط ، ويدعم هذا الرأى بحقائق ثابتة فى علم الحياة وتاريخ الإنسان ويخرج منه بأن المحيط البشرى على وشك أن يصمه إنتاج الذر ، الذى يسرع به إلى الفناء ... نخالف ولو فيا ذهب إليه ، وذكر أنه يؤمن بأن الإنسانية مايزال أمامها مراحل طوال قبل أن يحيق

بها الزوال. ولن تبرح الإنسانية كوكبها حتى تؤمن بربانيتها . وإن النوع البشرى تلميذ فى مدرسة هـذا الكوكب وسوف تبقى المدرسة حتى " يتخرج " التلميذ ، وهو محتاج لكى يتخرج إلى ألوف السنين .

وأسرار الخليقة أكبر من أن يحيط بها علم بشرى ، فمازال المجهول منها أضعاف المعلوم والإيمان وحده هو الحافز على ارتياد آفاق المجهول والتطلع إلى عوالم جديدة من العلم والمعرفة

وختم الأستاذ حديثه بهذا السؤال : متى يعرف الناس حقائق أنفسهم كما عرفوا حقيقة الذر وحقيقة العفن والفطريات ؟

متى يعرف الشباب انه روح قبل أن يكون جسما أو شهوة . ومتى يعرف حقيقة روحه بما تزخر به من إيمان وأنس ويقين ؟ ؟

"تعقيب"

وقد تفضل معالى وزير الشؤون الاجتماعية فرد على هذا السؤال بجواب بليغ استمده من كتاب الله العزيز حيث يقول : " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق " .

وما نيـل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقـدام كان لهم ركابا

" شوقى "